نشأة القباب وتطورها في العمارة الاسلامية

د. جمال أحمد المويرٍ•
أ. ماجد عبدالله أبوخطوة ••

تمهيد

تعد القباب من أحدى الابتكارات المعمارية التي أسهمت بدور بارز في تطور العمارة بصفة عامة ويرجع أصول هذا الابتكار لعصور ما قبل العصر الإسلامي بقرون عديدة ، حيث أخذ المسلمون فن بناء القباب من الحضارات التي سبقتهم ، وقد أقبل المسلمون على استعمالها بشكل واسع وخصوصاً في المساجد والأضرحة، كما أصبحت كلمة قبة اسماً مرادفاً للضريح في أغلب الأحيان.

وقد تطورت القباب في العمارة الإسلامية تطوراً ملحوظاً لم تشهده من قبل سواء من حيث مناطق انتقالها من الداخل أو الخارج أو من حيث قطاعها وتناسب تكوينها المعماري أو ما يكسوها من زخارف غاية في الدقة والإبداع إضافة إلى أشكالها الجديدة المبتكرة التي أبتدعها المعماري المسلم والتي كان لها الأثر الكبير في تطور العمارة فيما بعد .

تعريف القبة لغةً واصطلاحاً :

القبة في المصطلح اللغوي : قب التمر والجلد (بتشديد الباء وفتحها) ييبس وذهب ماؤه وقب الشيء قوسه وقب الحرف ضمه والقَبُّ (بفتح القاف وتشديد الباء وضمها) الضامر البطن(رزق،2000، ص233)' أما قبب البناء ، أقام عليه قبة أي بنى قبة ويقال بيتٌ مقبب وجمعها : قباب أو قبب ، وقب الشيء وقببه جمع أطرافه(المقري،د:ت،ص286)، والفعل قَبهُ يقِبهُ قباً هو شدة الدمج والاستدارة(البصري ،ج1،ص212)، والقبة هي بناء مستدير مقوس مجوف بعقد من الأجر ونحو(الفيروزابادي، 1913،ص107)، وهى تطلق على البيت المدور وهى معروفه عند التركمان والأكراد[1] وتسمى خرقاهة ، وهى كلمة فارسية(الزبيدي،ج1، ص838) وقد عرف العرب اسم القبة للدلالة على البيت الصغير المستدير وهو كل ما يرفع للدخول فيه ولا يختص بالبناء فقط كالخيمة والهودج الذي يوضع على الإبل إلى غير ذلك(شافعي،2002،ص168).

• أستاذ مساعد، كلية الاثار والسياحة ،جامعة المرقب

•• محاضر مساعد ، كلية الاثار والسياحة ،جامعة المرقب

[1] التركمان والاكراد شعوب وقوميات منتشرة بين غرب اسيا وشرق اوروبا ، موسوعة ويكيبيديا الحرة

أما المصطلح المعماري : فالقبة عبارة عن بناء محدب أشبه بكره مشطورة من نصفها أو هي عبارة عن بناء دائري مقعر من الداخل مقبب من الخارج ويتألف من دوران قوس على محور دائري ليصبح نصف كرة تقريبا يأخذ مقطعها شكل القوس وتقام مباشرة فوق سطح أو ترتفع على رقبة مضلعة أو دائرية أو على حنايا ركنية او مثلثات كروية او مقرنصات(رزق،2000،ص223) لتسهيل الانتقال من الشكل المربع إلى الشكل المثمن من ثم إلى الدائرة وقد تكون القبة صغيرة الحجم او كبيرة(الحديثي ، عبدالخالق،1974،ص9).

تعتبر القبة من أحد عناصر العمارة التي تستعمل في تسقيف المباني فهي عنصر معماري محور عن فنون الازج ، والازج: مصطلح معماري قديم يطلق علي كل سقف يشيد مقوسا ، كما استعمل للدلالة علي مصطلحات أخري منها العقد والطاقة والقبو والحنية ،وقد استعمل هذا النوع من الفنون في العديد من الأبنية في بلاد الرافدين قديماً(مصطفى ،د:ت، ص12) .

كما تسمى القباب تبعا لمظهرها الخارجي فتوجد قباب بشكل نصف كرة وجزء من كرة مدببة او مخروطية او مضلعة او متعددة الأضلاع ، ولا يوجد ما يطلق عليه القبة الحلزونية علي غرار المئذنة الحلزونية (مصطفى ،د:ت، ص12).

القبة من الملامح التي تتميز بها أغلب المباني الدينية سواء عند المسلمين أو عند غيرهم ، بحيث يندر أن يشاد مبنى ديني من غير أن تكون له قبة واحدة أو أكثر سواء في منتصف سقفه أو في بعض جوانبه(الوالي،1988،ص274) ، ولا تستطيع الجزم في أي وقت دخلت القبة أبنية المعابد الدينية ولكن نستطيع القول أن هذا الشكل الهندسي الفريد كان يبنى قديما فوق الهياكل الوثنية ومنها انتقل إلى معابد الأديان السماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام(الوالي،1988،ص275).

لقد استخدمت القباب في المنشآت المدنية أيضاً ولم يقتصر على المنشآت الدينية حيث استعملت لتغطية القصور الحمامات والمنازل والأسـواق كذلك استخدمت في المنشآت الحربية مثل أسوار المدن والأبراج كما استعملت في تغطية المدافن حتى صار كلمة قبة مرادفة للمدفن أحيانا(الوالي، 1988،ص275).

آراء في أصل فكرة القبة :-

لقد أثارت القباب جدلاً كثيراً حول أصل نشأتها وسبب انتشارها في المعابد الدينية دون غيرها عن العمائر والأبنية المدنية حيث يقول أحد الآراء بأن القبة تمثل الفضاء الرحب والسماء الواسعة بما فيها من الروعة والجمال ، لذلك حرص أهل الأديان على أن يجعلوها في المعابد لما توحيه من المعاني التي

جاءت بها الأديان المختلفة سيما تلك الأديان التي توصف بالسماوية وهي اليهودية والنصرانية والإسلام(الوالي،1988،ص274).

وقال رأى آخر بأن القبة بما هي عليه من شكل مقوس أجوف تساعد على تجميع أصوات المؤمنين عند تلاوة تراتيلهم في الكتب المقدسة وتعمل على ترديد رجع صدى هذه الأصوات بشكل إيحائي الأمر الذي يزيد في روعة الصلاة ويدخل الخشوع والانفعال الوجداني في نفوس المتعبدين(مصطفى ، د:ت، ص19).

ويقول رأى آخر بان القبة قد صُممت بالشكل الذي هي عليه لكي تساعد على إشاعة الهواء في المعابد عندما كانت قديما تخلو من النوافذ لاعتبارات دينية وبقيت بعد ذلك بقوة الاستمرار على عادة الناس بالمحافظة على التراث الروحي دون تغير أو تبديل(الوالي،1988،ص275).

ولا نستطيع تحديد في أي وقت دخلت القبة الأبنية الدينية ولكن نستطيع القول أن هذا الشكل الهندسي الفريد كان يبنى قديما فوق الهياكل الوثنية ومنها أنتقل إلى معابد الاديان السماوية(عياد،2008،ص13) .

مما تقدم يمكننا القول بأن الآراء تعددت حول نشوء فكرة القبة عند الإنسان قديما وحول الأسباب التي دفعت به لاختيار هذا الشكل المعماري ، حيث فسر بعض الباحثين أن ظهورها على اساس طقوس دينية فهي تعكس الاصوات اثناء تأدية هذه الطقوس ، ورأى البعض الأخر أن السبب في إقامتها هو الهدف المعماري ، وهو أقرب إلى المنطق والعقل ، فقد لاحظ الإنسان القديم أن الشكل الهرمي هذا الأسهل إقامة بتشبيك الأغصان ببعضها بحيث تعطينا شكل قبة هرمية فوق البيت التي يسكنه ، كما لاحظ أيضا عند تطور المسكن أن الشكل المقبب للسطح يحميه من العوامل الجوية والمناخية ، فماء المطر والثلج ينزلقان منه لكنهما يتراكمان فوق السطح الافقي ، وقد يتسربان منه إلى داخل المسكن هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن القبة تسمح بفتح نوافذ تهوية وإضاءة فيها او في رقبتها بينما لا يسمح السطح الأفقي بذلك(الشهابي،1996،ص269) .

ظهوره القبة في عمائر الحضارات القديمة :-

أن أول الأمر قام الإنسان ببناء مسكنه بعمل حفرة في الأرض بشكل دائري أو شبه دائري دعمت جوانبها بالأحجار ويثبت عليها خيمة أو شكلا مخروطيا من فروع الأشجار تعمل عليه تغطيه بالقش والطين والجلود وقد وجدت تلك الحفر المدعمة بالحجارة في مدينة بالقرب من هامبورغ بألمانيا ترجع إلى الألف الثانية عشر قبل الميلاد (مصطفى،د:ت،ص16) .

كذلك وجدت تلك المساكن ذات القباب في منطقة بالاتحاد السوفيتي (روسيا حالياً) كما عرفت المساكن بشكل حفرة أو كهوف شبه دائرية في العصر الحجري بمصر بمنطقة الفيوم المصرية(مصطفى،د:ت،ص16) وفى قبرص بالقرب من خيروكيتيا وجدت آثار مساكن عديدة بها سقف بشكل قبة من الألف الرابعة قبل الميلاد ، كذلك وجدت مساكن مشابهة باليونان بمدنية اورخميوس من الالف الثانية قبل الميلاد(عياد.2008،ص73).

اما في عمارة بلاد الرافدين التي ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد تعددت أشكال المساكن التي تحاكي شكل القبة فيوجد مسكن دائري أو شبه دائري ، بالإضافة إلى مساكن تجمع المسقط المستطيل والدائري فقد وجدت تلك المساكن في منطقة حسونة بالقرب من الموصل وفي تبة كورة (مصطفى،د:ت،ص17-16).

وقد استخدم الأشوريون طريقة القبو في تغطية أسقف المباني كما استعملوا القبة في البناء لتسقيف الحجرات الصغيرة، (شكل1) وأصبح إنشاء القباب المباني والمساكن ذات الحجرات التي لا يزيد عرضها عن خمس أمتار هي الطريقة المستعملة بعد ذلك في المنطقة ومن العلامات المميزة للعمارة في ذلك العصر ونجد مثالا لذلك في قصر ساراجون في خورسباد بإيران الذي اكتشف عام 1281هـ-1864م وقد سقف هذا القصر بالقبو والقباب(عياد،2008،ص75) .

شكل (1) القبة عند الآشوريون عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ،16

وفي العصر البابلي استعمل عنصر القبة سواء في المباني المدنية أو الدينية حيث نجد شكل قبة على هيئة جزء من دائرة أعلى المداخل الرئيسي لزيقورات اورنامو بمدينة (اور) والتي ترجع إلى

عام 2125 قبل الميلاد ، وقد أعطتنا اللوحة المحفوظة بالمتحف البريطاني والتي وجدت في مدينة نينوى عن فكرة استعمال القباب البيضاوية في المباني السكنية(عياد،2008،ص17).

أما العمارة المصرية القديمة نجد بها أمثلة متعددة لاستعمال شكل القبة في مبانيهم حيث توجد بها مدافن من عصر المملكة الوسطى بنيت سقوفها بأشكال قباب دائرية كذلك يوجد مثال اخر يعود الي الاسرة الرابعة بمقبرة سنب، كما عملت صوامع داخل المساكن الكبيرة من الطين بشكل مخروط(مصطفى، د:ت،ص17-16) .

ولقد ظهرت القبة في النقوش المصرية على هيئة شكل نصف دائري أو طبق يمثل الإلهة نوت والتي ترمز لسقف الكون او السماء او طبق(ذو الفقار،2005،ص367) (شكل 2) .

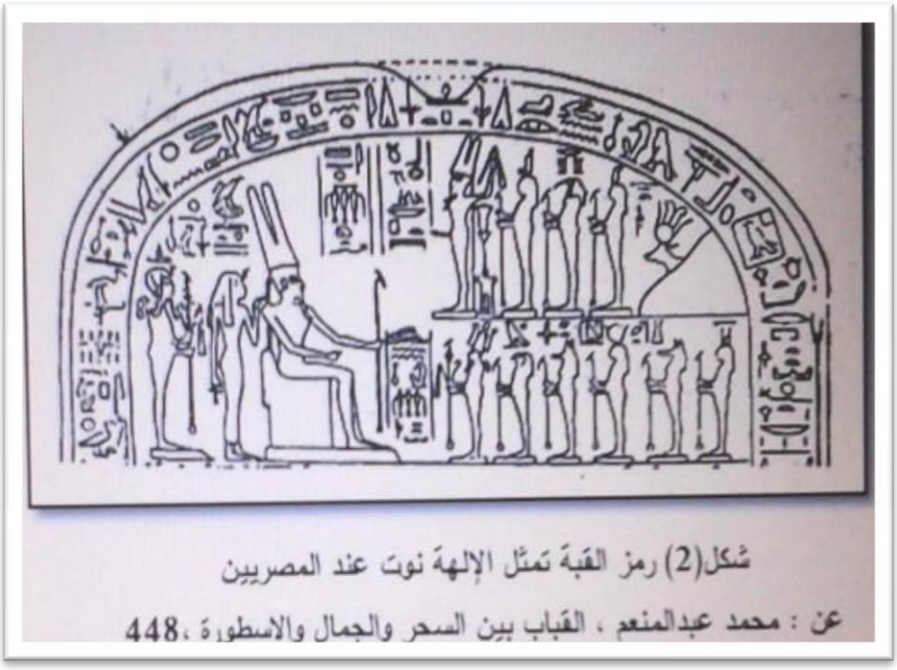

شكل(2) رمز القبة تمثل الإلهة نوت عند المصريين

عن : محمد عبدالمنعم ، القباب بين السحر والجمال والاسطورة ،448

وفي العمارة المكينية في بلاد اليونان فقد استعملت أشكال القباب في مباني المدافن ذات المسقط الدائري ونجد أمثلة على ذلك في قبر اتريوس من القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهو عبارة عن حجرة دائرية بعلوها سقف مقبب وهو نظام يوناني يعرف باسم (corhelled) تقدم فيه القبة فوق جدران المقبرة الدائرية دون فواصل فجدران الحجرة تقل في الاتساع كلما ارتفعت إلى أعلى وبالتالي تتلاقى الجدران عند بؤرة السقف و يتكون السقف المقبب دون ان تكون هناك فواصل او دعائم تفصله عن الجدران(الوالي،1988،ص277) (شكل3)، كذلك القبر المعروف بأسم قبر الاسد في cnidas كنيدوس في اليونان (شكل4)، ويرجح انه يعود الي حوالي عام 350 ق م (قادوس،2001،ص113) .

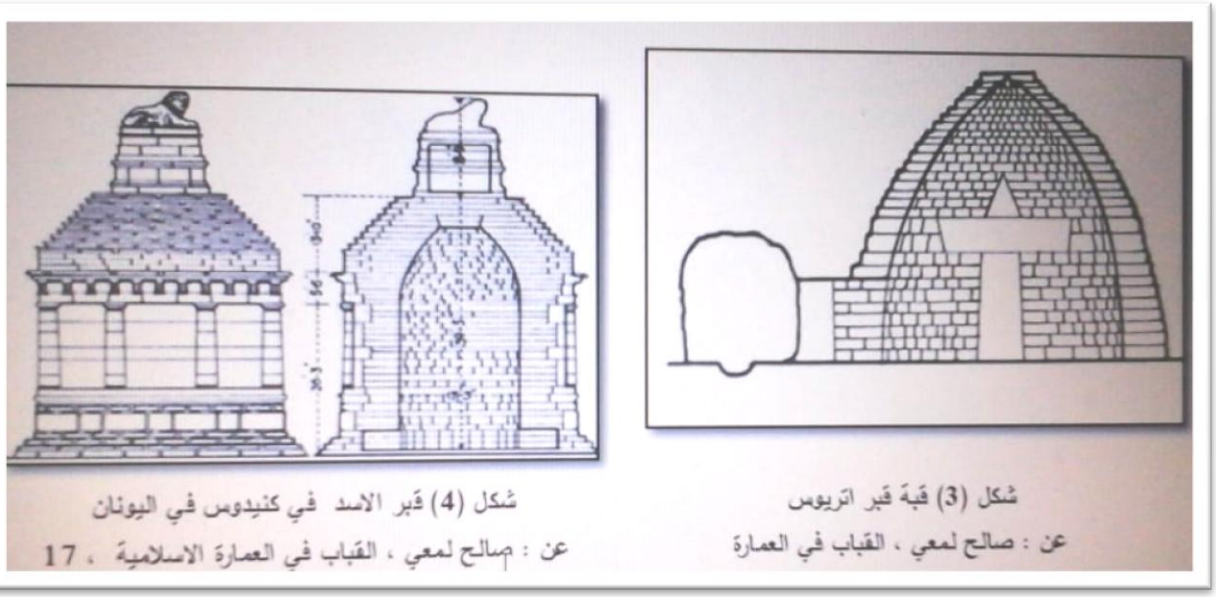

شكل (3) قبة قبر اتريوس
عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة

شكل (4) قبر الاسد في كنيدوس في اليونان
عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 17

وفي العصر الساساني وجدت قباب حقيقة في القصور بمدينة فيروزابادي من القرن الثالث الميلادي (شكل 5)، وفي سرفيسان من القرن الرابع الميلادي(الشافعي ،2002،ص168) (شكل 6)، وقد تم تحويل المسقط المربع للقباب إلى دائرة بواسطة انصاف القباب لتغطية الحشوات الغائرة المتعامدة الجوانب وهذه تسمي الحنايا الركنية(الشافعي،2002،ص169).

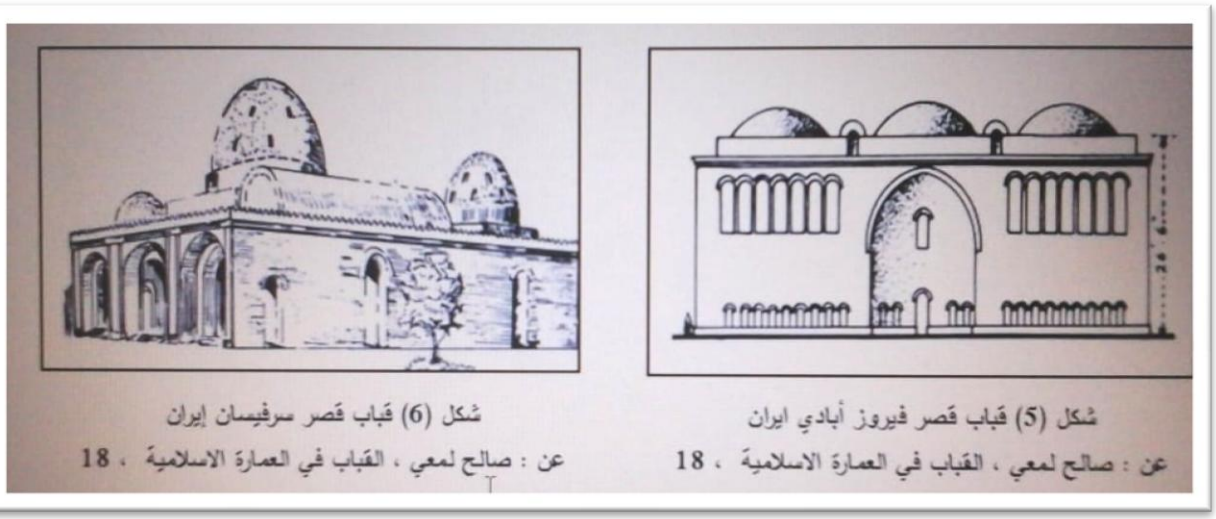

شكل (5) قباب قصر فيروز أبادي ايران
عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 18

شكل (6) قباب قصر سرفيسان إيران
عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 18

أما العمارة الرومانية استخدم عنصر القبة لتغطية المساحات الواسعة حيث استعملت فيها القباب الخرسانية على مساقط دائرية في كل من المعابد والمدافن والمباني المدنية حيث اقتبس الرومان من الإغريق التخطيط الدائري لبعض معابدهم ومقابرهم(عياد،2008،ص75) ، ونرى أمثله لها في معبد فيستا (vasta) بتيفولى يعود إلى عام 80 قبل الميلاد (شكل 7) ،كذلك شكل آخر يعود إلى العصر الروماني موجود في بعلبك في لبنان وهو معبد فينوس(شكل 8). يعود إلى عام 273 ميلادي(مصطفى، د: ت، ص18)

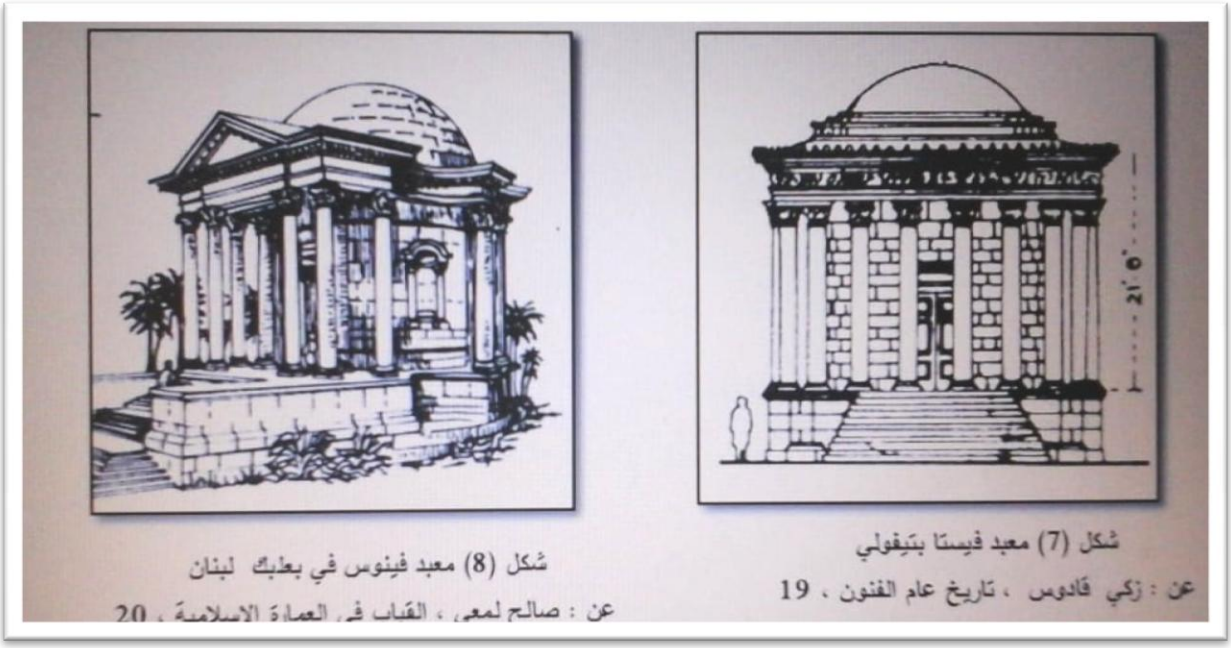

شكل (7) معبد فيستا بتيفولي
عن : زكي قادوس ، تاريخ عام الفنون ، 19

شكل (8) معبد فينوس في بعلبك لبنان
عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 20

كما يوجد مثال رائع للقبة في العصر الروماني موجود في معبد البانثيون بروما 124ميلادي ،حيث يعتبر هذا المعبد من أجمل وأدق المعابد الرومانية وكذلك فهو من أهم المعالم المعمارية التي تعود إلى عصر الإمبراطور هادريان ويبلغ قطر هذا المبنى المستدير الشكل (43.5 متر) سمك جدرانه حوالي(5.5 متر) وكانت جمع الجدران الداخلية مكسوة بالرخام(قادوس،د:ت،ص236) ، وتعتبر قبة معبد البانثيون من أكبر قباب العالم في ذلك الوقت وهي نصف كروية حيث ترتكز على حائط البناء المستدير وارتفاعها مماثلا لقطر البناء وهي مفتوحة من أعلاها بفتحة مستديرة في الوسط يبلغ قطرها (9 امتار) تقريبا ليدخل منها الضوء وهي الفتحة الوحيدة في المبني بخلاف الباب ، والقبة مبنية من الطوب المحروق وكانت البداية مكسوة بالرخام وعقد القبة عبارة عن نصف كرة تقريبا(قادوس،د:ت،ص236) (شكل 9).

شكل (9) قبة معبد البانثيون بروما عن: Bunson: Encyclopedia of the Roman Empire ,177

وقد استخدام المهندسون الرومان المسقط الدائري هربا من الأركان المثلثة التي تنشا عند وضع القبة فوق المباني المربعة المسقط (شكل 10) ، كذلك لتغطية المساحات الواسعة بالبناء بدلا من الخشب وكان يراعى ان تكون المساحات ذات مسقط دائري او مضلع (عياد ،2008، ص 75) .

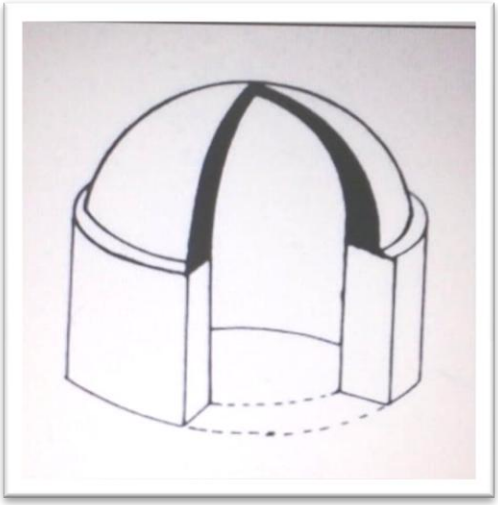

شكل (10) قبة رومانية علي مسقط دائري عن : صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 18

كذلك نجد مثالا للقبة في المدافن الدائرية مثل مدفن ديُكلتان (diocltian) في مدينة سبالاتو•(عياد ،2008، ص 55) تعود الي عام 300 ميلادي ، وهناك مثال أخر وهو القبة التي غطت الخلوة المستديرة التي تتصل بالمغطس الأوسط الموجود في حمام كركالا بمدينة روما التي أقيمت عام 217م(مصطفى،د:ت،ص18) وهو يعتبر من أجمل وأكبر الحمامات الرومانية وفضلا عن ذلك فهي تعطينا فكرة قوية عن عظمة هذه المباني و سعتها وكانت مباني الحمامات مقامة علي ارتفاع (6.50 متر) تغطى بعض حجراتها بالقباب (قادوس،د:ت،ص260).

أما في العصر البيزنطي فقد استمر استعمال القباب في المباني بأشكال متعددة على مساقط دائرية او مربعة مع استعمال المثلثات الكروية في الأركان ، كذلك وجدت القباب بعد ذلك في العصور اللاحقة للعصر البيزنطي في العمارة الأوربية وخاصة في عصر النهضة والباروك ، ثم بعد ذلك في عمارة القرن الثامن والتاسع عشر الميلاديين(مصطفى،د:ت،ص19) .

أفضل نتائج هذا العصر استخدام القبة وامتزاجها مع التخطيط البازيليكي حيث نجد تخطيط الكنائس على الطراز البازيليكي مع إضافة القبة على صالاتها ، وهو ما يعرف بالبازيلكات المقببة The domed basilica ومن أمثلة هذا النظام والتخطيط هي كنسية سانت ايرين St.Irene في

• سبالاتو مدينة تقع جنوب كرواتيا قامت علي انقاض مدينة رومانية

القسطنطينية حيث كانت القبة تغطى الصالة الرئيسية المربعة حيث استعمل العقود و المقرنصات في حملها (قادوس،د:ت،ص443).

تعد كنيسة أيا صوفيا في مدينة القسطنطينية (إسطنبول الآن)• والتي تم بناؤها سنة537 م من أروع النماذج التي تعود إلى هذا العصر ومعناها الحكمة المقدسة ،حيث جمعت كنيسة أيا صوفيا العديد من الأفكار المعمارية التي كانت سائدة في ذلك الوقت بل هي تعتبر قمة المعمار البيزنطي فالكنيسة كانت مستطيلة الشكل على الطراز البازيليكى (عبدالجواد،1970،ص72).

تعتبر قبة الكنيسة رائعة الجمال والتطور حيث يبلغ طول المبنى الضخم (100 متر) وارتفاع القبة (55.00متر) أي إنها أعلى من قبة البانثيون ويبلغ قطرها (30.00 متر) والتي تستند على مبنى مربع الشكل عبارة عن دعامات ضخمة تحمل فوقها عقوداً كبيرة تحمل قاعدة القبة ، تستند القبة من الشرق والغرب على أنصاف قباب ضخمة ترسو بدورها على عقود ودعامات موزعة أحمالها على الأكتاف التي في أركان المربع ، ونلاحظ الانتقال من المربع المتكون من هذه العقود إلى المسقط الدائري للقبة يتم بواسطة مثلثات كروية تسمى معلقات أو العناصر المتدلية حيث يسمح هذا التكوين الإنشائي بالارتفاع بالقبة فضلا عن خفة الوزن أيضا(قادوس،د:ت،ص445) وقد غطت القبة من الداخل بألواح من الرصاص سمكه ربع بوصة لحمايتها من العوامل الجوية أما أنصاف القباب فقد غطت بالفسيفساء الملونة (عياد ،2008، ص79).

استمرت الكنيسة في الاستخدام كمركز للدين المسيحي لفترة طويلة حتى دخول العثمانيين القسطنطينية عام 856هـ-1453م فتحولت إلي مسجد ، وتعتبر هذه الكنيسة من أروع الأمثلة للعمارة البيزنطية (لوحة1) مثلها مثل معبد البارثنون في الطراز الاغريقي والبانثيون في الطراز الروماني(عياد ،2008، ص80).

وقد انتشرت العمارة البيزنطية في روسيا أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ولكن بطابع فريد اختصت في شكل القباب وخاصة في قباب كاتدرائية القديس بازل الملحقة بمبنى الكرملين بموسكو(الجواد،1970،ص75) (لوحة 2)حيث ظهرت القباب بأشكال غريبة وغير مألوفة في الطراز البيزنطي نفسه فقد توجت الأبراج بقبة علي شكل عمامة او خوذة حربية اتخذت لها طابعاً فريداً.

• تقع هذه الكنيسة في اسطنبول حولت الي مسجد بعد الفتح الاسلامي وحولت في بدايات القرن العشرين الي متحف حتي الان

لوحة (1) كنيسة أيا صوفيا بإسطنبول
عن: موسوعة العمارة الاسلامية موقع www.wikipedia.org

لوحة (2) قباب كاتدرائية القديس باژل بمدينة موسكو
عن: موسوعة العمارة الاسلامية موقع www.wikipedia.org

تطور القبة في العمارة الاسلامية :-

إن القبة تعتبر من العناصر المعمارية المعروفة منذ الأف السنين ووصلتنا بأشكال مختلفة بداية من العصر الحجري ومن الحضارات القديمة كالأشورية والبابلية وحضارات بلاد اليونان والحضارة المصرية سواء كانت عبارة عن رسومات على الجدران أو وما كشف عنه من خلال الاكتشافات الأثرية من علماء وباحثين متخصصين في مجال العمارة (عيـاد ،2008، ص13) ، ويرجع الفضل في شعبية استخدامها إلى الرومان حتى وصلت إلى أوج ازدهارها في العصر البيزنطي ، والواقع أن نموذج القبة الرومانية كان ذا اثر ملحوظ في أعمال المهندسين الأوروبيون، وقد عنى المعماريون العرب والمسلمون بإقامة القباب وزخرفتها عناية كبيرة فتوجوا بها كثيراً من المساجد والمدارس والأضرحة ، ولكي نعرف متى ظهر عنصر القبة في العمارة الإسلامية يجب علينا أن نعرف متى أدخل العرب القبة في عمائرهم(البعلبكي،1986).

فكثيرا ما تحدثت كتب التاريخ عن تلك القباب التي كانت تشيد لملوك المناذرة في الحيرة أو لأمراء الغساسنة في الشام فان هؤلاء و أولئك كانوا يقلدون الفرس والروم في مظاهر السيادة والسلطة ، فليس غريباً أن يتحدث المؤرخون عن القباب التي اتخذوها في بيوتهم قبل الإسلام (عيـاد ،2008، ص14) وقد كتب المستشرق فيلهوزن في كتابه (بقايا الوثنية العربية) أن الأشراف من قريش كان من

حقهم الإلهة المنزلية وهم يحرسونها ليس في المنزل أو الخيمة بل في قبة خاصة تسمى قبة القبيلة وكانت هذه القبة تقام إلى جانب خيمة الشيخ الذي يتزعم القبيلة(الوالى،1988، ص275).

كما عرف العرب القبة في العصر الجاهلي فأنهم عرفوها كذلك في عصر الرسول ρ والخلفاء الراشدين حيث يذكر أن النبي ρ عندما تزوج عائشة رضي الله عنها ,ويُقال إنه بنى بها , وكلام العرب في ذلك الوقت بنى عليها او بُنى عليها يبنى بناءً أي ضرب عليها قبة أي خيمة (السمهودي،1977،ص463).

وذكرت القبة في بعض الاحاديث النبوية : "عن ابن عباس رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : **وهو في قبة له يوم بدر**.....(ابن كثير،341،2006) " وفي حديث اخر " قال رسول الله ρ **الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء نخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا**"(البخاري،2001،ص1290) .

حيث نستخلص من ذلك أن القبة كانت معروفة إبان فترة الرسول الكريم بتعدد شكلها او مسمياتها ومن ثم ظهرت بشكل واسع في عصر بنى أمية والذين تعاقبوا على الخلافة من بعدهم ولم يؤثر أي اعتراض من قبل العلماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم وادخل المسلمون القباب على بناء مساجدهم وجعلوا منه عنصرا مميزا لفن العمارة الإسلامي(عياد ،2008، ص14) ورمزاً للطهارة والصلاح والتقرب إلى الله وعلى الرغم من مضى مئات السنين واختلاف العهود وتطور البناء فانه ينذر ان يبنى في أي بلد من بلدان العالم الإسلامي مسجد إلا وتكون القبة أحد عناصره البارزة .

العمائر التي تغطيها القباب :-

تستخدم القباب في تغطية العديد من المنشآت منها الدينية المتمثلة في المساجد والمدارس والزوايا بالإضافة إلى المدافن كما تغطي القباب المباني المدنية منها الأسواق والحمامات وغيرها ، وتستخدم في بعض الاحيان في العمارة الدفاعية كالبوابات الكبيرة في الاسوار التي تحمي المدن .

استخدام القبة في المساجد :-

كانت القباب من أحد العناصر المعمارية المهمة في إنشاء المساجد ولعل أجمل ما تقع عليه عين الإنسان في عمائر العالم الإسلامي سواء كانت في قرية صغيرة او مدينة كبيرة حيث تجد المساجد بمآذنها الذاهبة في الجو مشيرة إلى السماء وقبابها الأنيقة التي تضيف إلى المنظر عنصراً من الجمال الفني و الروحي فهي تزيل الوحشة عن تواضع مباني القرية وصغرها وتنفي الغرور عن مباني المدن

الكبيرة وتضفى على المقطع الأفقي في القرية والمدينة توازنا يهدى النفس ولمسة من جمال روحي هادى رقيق(عاكشه،1981،ص121-124).

ومن الطبيعي أن ترى في المساجد قبة على الأقل وذلك بالرغم من أن المساجد الأولى في الإسلام لم تكن ذات قباب ولكن نظرا لاتساع رقعة الأراضي الإسلامية ودخول الكثير في الإسلام وكثرة المصلين الأمر الذي أدى إلى زيادة حجم المسجد(عياد ،2008، ص63) .

إن استخدام القباب في العمارة الإسلامية المبكرة والتي نعني بها المباني التي تم تشيدها في عصر الرسول الكريم ρ ومن بعده في فترة الخلفاء الراشدين لم تحض بالاهتمام الكبير على الرغم من معرفتهم لهذا العنصر المعماري وذلك لبساطة المباني وانتهاج الخلفاء لحياة الزهد والتقشف وانشغالهم بنشر الدعوة الإسلامية إضافة الى ذلك إن أماكن العبادة التي يحتاجها المسلمين والمتمثلة في المساجد كانت في بداية الآمر بسيطة الشكل من حيث تكاليف البناء ولا تحتوي على قباب وبهذا لم نلاحظ انتشار هذا العنصر في العمارة الإسلامية المبكرة .

كانت القباب في المساجد بدايةً لدلالة على مكان المحراب ولهذا نجدها تعلو المنطقة المربعة الواقع أمام المحراب وقد امتازت هذه القباب بكبر حجمها عن بقية القباب الموجودة في المسجد ان وجدت ، ومن المساجد ما يتكون من قاعة واحدة للصلاة وهذا المسجد الذي تسيطر فيه القبة على الفراغ بأكمله ومن المساجد ما يتكون من عدة وحدات او فراغات بفصلها صفوف من الأعمدة متماثلة او غير متماثلة تغطيها العديد من القباب أو يتكون من قبة مركزية تحيط بها قباب أصغر منها أو أنصاف قباب(عاكشه،1981،ص121).

أن أقدم النماذج التي وصلت إلينا من القباب في المساجد نجدها تعود للعصر الأموي من خلال قبة الصخرة بالحرم القدسي في فلسطين (لوحة3) ، وفي جامع أبن طولون بالقاهرة الذي بني عام 266هـ/879م (لوحة4) ، كذلك نجد اقدم مثال للقبة في المغرب الاسلامي في مسجد القيروان بتونس الذي بناه أبو ابراهيم بن أحمد الأغلب 248هـ/863م(سامح،2000 ،ص84) (لوحة5) ، كما يحتوي جامع الأزهر الذي أنشائه جوهر الصقلي بأمر من الخليفة المعز لدين الله علي عدة قباب واحدة تعلو المحراب و واحدة في كل ركن من رواق القبلة ، ولعل أقدم مثال للقبة يرجع الي العصر الفاطمي هي القباب الموجودة في اضرحة السبع بنات في مصر، حيث اقيمت هذه القباب في القرن الخامس الهجري 400هـ/1010م ، أما عن قبة الأمام الشافعي فقد قام بإنشائها السلطان الايوبي الملك الكامل عام 608هـ/1211م ، ومن أشهر القباب التي ظهرت في العصر المملوكي نجدها في مصر لأنها كانت مركز الدولة هي قبة ضريح الناصر محمد بن قلاوون المنشئ عام 684هـ/1285م ، ولقد ظهرت القباب

في العديد من المساجد في العصر العثماني مثال الجامع الكبير في بورصة 799هـ/ 1396م و جامع السليمانية بإسطنبول و جامع السليمية في أدرنة (لوحة6) التي بنيت في عهد السلطان سليم الثاني عام 982هـ/ 1574م(عياد ،2008، ص75).

لوحة (3) قبة الصخرة ببيت المقدس
عن : حسن الباشا ، الآثار الإسلامية ، 23

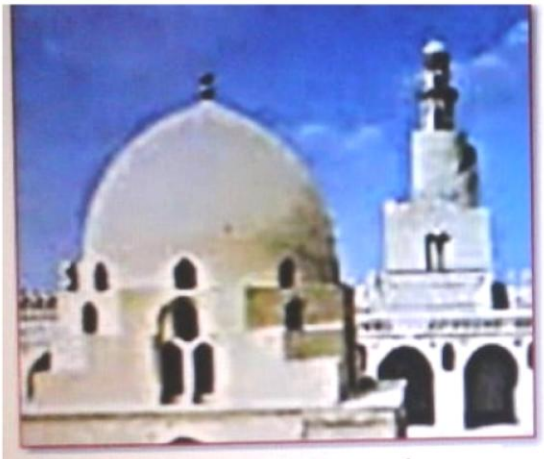

لوحة (4) قبة جامع ابن طولون بالقاهرة
عن: صالح لمعي ، القباب في العمارة ، 19

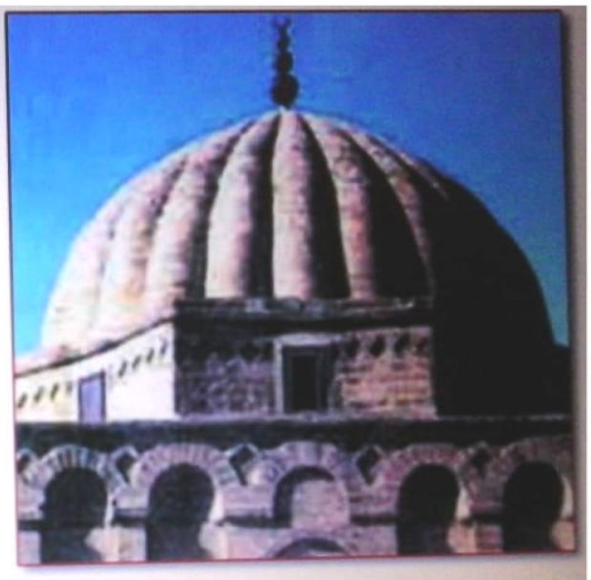

لوحة (5) قبة مسجد القيروان
عن : سليمان زبيس ، القباب التونسية ، 61

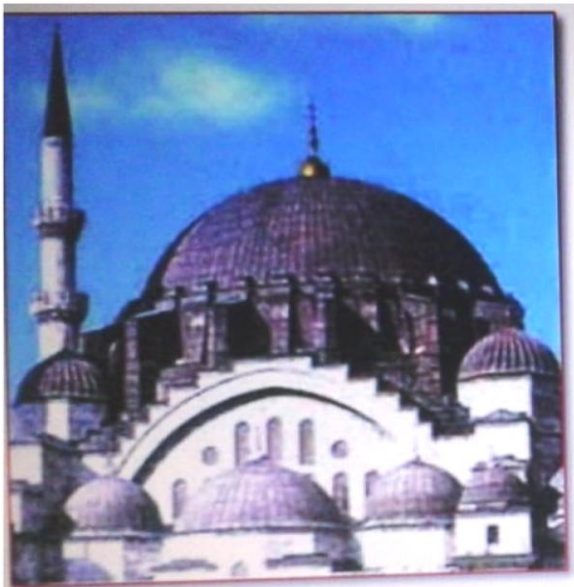

لوحة (6) جامع السليمية في ادرنة
عن : على احمد غالب ، قباب القاهرة ، 208

كما استخدمت القباب في تغطية أروقة المساجد و شيدت أيضا في صحون المساجد لتغطية ميضأة الوضوء (لوحة 7)، وجُعلت تلك القباب كمستودعات لحفظ المدخرات الثمينة والأوراق الرسمية (لوحة 8) واتخذها بعض الحكام كخزائن لحفظ الكتب القيمة والمحفوظات النادرة التي يخشى عليها من الضياع والسرقة(الوالي،1988،ص258) .

استخدام القبة في الاضرحة و المدافن :-

الضريح :هو شق في وسط القبر يمثل القبر كله وقيل هو قبر بلا لحد وسمى ضريحا لأنه يشق في الأرض شقاً(رزق،2000،ص174) ، ويقال إن هذه الكلمة مشتقة من ضرح القبر جعله ضريحا ولم يلحده وضرح الشيء رمى به ونحاه(المقري،د:ت،ص287) .

إن الضريح معماريا هو المدفن الذي يحتوى على حجرة لدفن الموتى في الأرض وما يعلو ذلك من بناء على سطح الأرض وهو عبارة عن بناء مربع الشكل غالباً يعلوه قبة ويطلق هذا المصطلح أيضاً على القباب المستقلة المعدة للدفن او تلك التي ألحقت بعمائر أخرى كالمدارس او المساجد او الزوايا او الخانقاوات (رزق،2000،ص174) .

وترجع أصول استخدام القبة كبناء فوق القبر طبقاً للاكتشاف الحديثة إلى الفترة المحصورة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد حيث عثر على نماذج من هذا النمط من المباني التي تعلوها قبة في أواسط أسيا قبل ظهور الإسلام وانتقلت هذه الظاهرة

إلي إيران ومنها إلى العراق وقد استخدمت القباب في تغطية المقابر القبطية ، ونجد مثالاً لها مقابر البجوات والتي ترجع إلى القرنين الرابع والخامس الميلادي وهي مبنية من الطوب اللبن وفي العصور الإسلامية استخدام المسلمون القباب فوق الأضرحة وأطلق الجزء على الكل وصارت كلمة قبة اسماً للضريح(الوالي،1988،ص285) .

تعتبر قبة الصلبية أول ضريح خطط في الإسلام و أقدم الأبنية الإسلامية بالنسبة للمدافن ذات القباب وهي قبر الخليفة العباسي المستنصر بالله• والذي أقامته له أمه الرومية الأصل سنة 245هـ-862م ولعل تغطية المكان بالقباب في العمارة الإسلامية لمثيرة لبعض التساؤلات عن الأصل في ذلك فمن المعروف لدي المسيحيين في القرن الرابع الميلادي في سوريا وفلسطين الاعتقاد بان القبة تمثل السماء وعلى هذا يمكن فهم السبب بناء قبة على قبر الخليفة المستنصر(مصطفى،د:ت،ص23) .

ثم انتشرت بعد ذلك عمارة الأضرحة في العالم الإسلامي وبخاصة في العراق وإيران والهند ومصر ومن أشهر الأضرحة الإسلامية ضريح إسماعيل الساماني في مدينة بخاري سنة 303 هـ-907م(الحداد،ص39) (لوحة9).

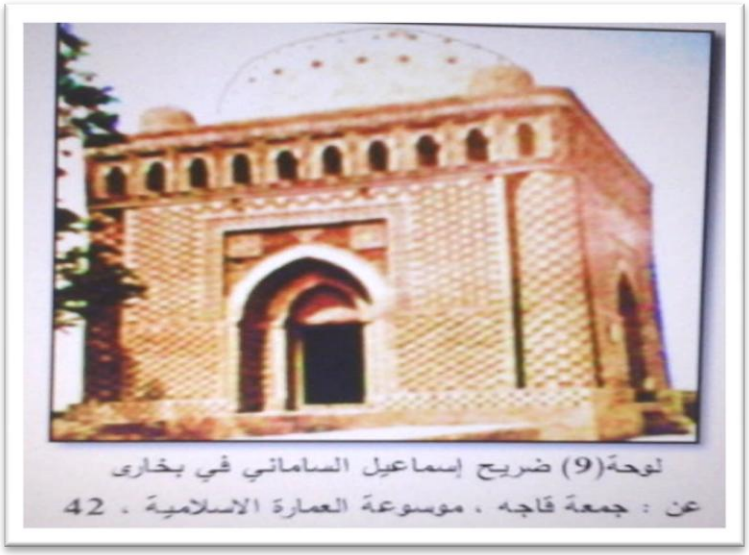

لوحة(9) ضريح إسماعيل الساماني في بخارى
عن : جمعة قاجه ، موسوعة العمارة الاسلامية ، 42

إما في مصر فأقدم مثال للمدافن ذات القباب مشهد ال طباطبا من العصر الإخشيدي سنة 334هـ-945م (شكل11) ، وتعد قبة الأمام الشافعي في مصر من أشهر القباب التي أقيمت فوق الضريح وهي من الخشب ،كذلك يعد قبر جنبادي قابوس المخروط الشكل من أشهر الأضرحة أيضاً ، و ضريح تيمورلنك في سمرقند سنة 808هـ/ 1405م (لوحة 10) ، وضريح الأمام البخاري الذي يقع في

• الخليفة العباسي المستنصر بالله هو محمد بن الطاهر احد احفاد هارون الرشيد وينسب اليه بناء المدرسة المستنصرية ببغداد وهي مدرسة اسلامية شاملة في جميع العلوم

قرية خاجاه صاحب على بعد 30كم من سمرقند ، ومقابر الأئمة الزيدية في صنعاء ، ومقابر السعديين في مـراكش، وأضرحة سلاطين المماليك بالقاهـرة(رزق ،2000،ص174) (لوحة 11) .

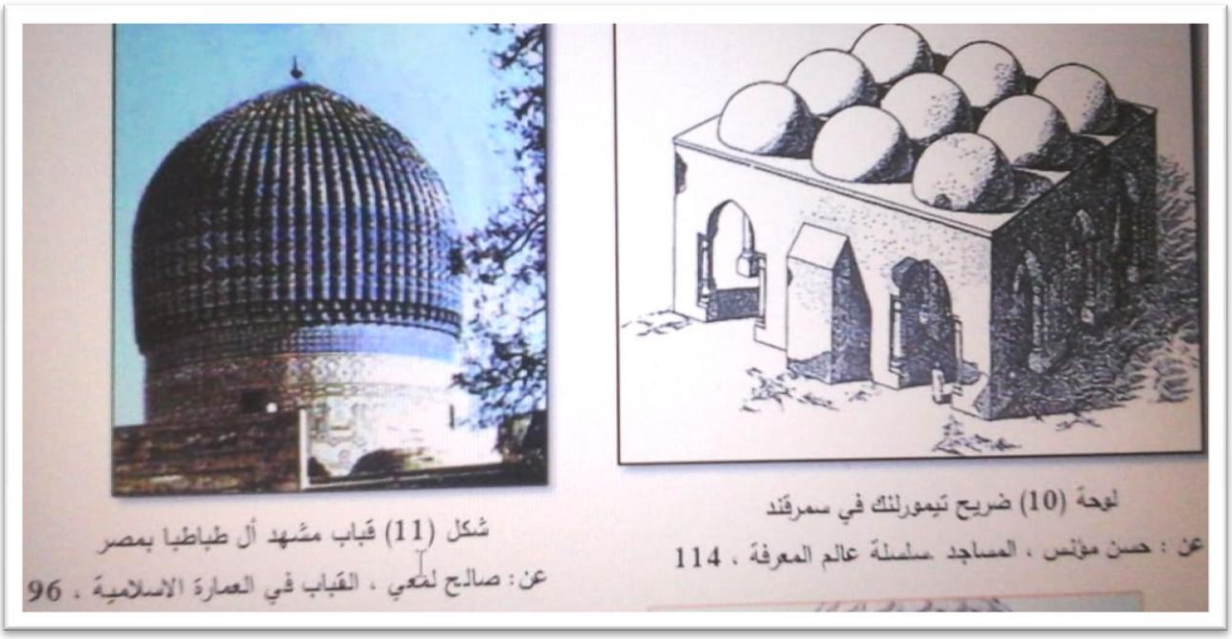

لوحة (10) ضريح تيمورلنك في سمرقند
عن : حسن مؤنس ، المساجد سلسلة عالم المعرفة ، 114

شكل (11) قباب مشهد أل طباطبا بمصر
عن: صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 96

لوحة (11) قباب الاضرحة بالقاهرة
عن: صالح لمعي ، القباب في العمارة الاسلامية ، 98

وصارت الأضرحة تلحق بعمائر دينية أخرى كالمدارس والمساجد، ومن أقدم أمثلتها ضريح السلطان نور الدين محمود في سوريا 541هـ-1146م. حيث انتقل هذا التأثير إلى مصر في عصر الأيوبيين وانتشرت انتشارًا واسعًا في عهد سلاطين المماليك، حيث أصبحت تلحق بالأضرحة مساجد ومدارس وأسبلة وخانقاوات وغيرها(عياد،2008،ص66)، ومن أشهر الأضرحة الإسلامية وأفخمها تاج محل بمدينة أكرا بالهند (لوحة 12) وهذا الضريح يمثل قمة ما وصلت إليه فنون العمارة في العصر المغولي بالهند. وقد شيد هذا الضريح السلطان شاه جهان ليكون ضريحًا لزوجته ممتاز محل، ويعتبر تصميمه قمة من ناحية التخطيط المعماري والأسلوب الزخرفي(مصطفى،د:ت،ص24)

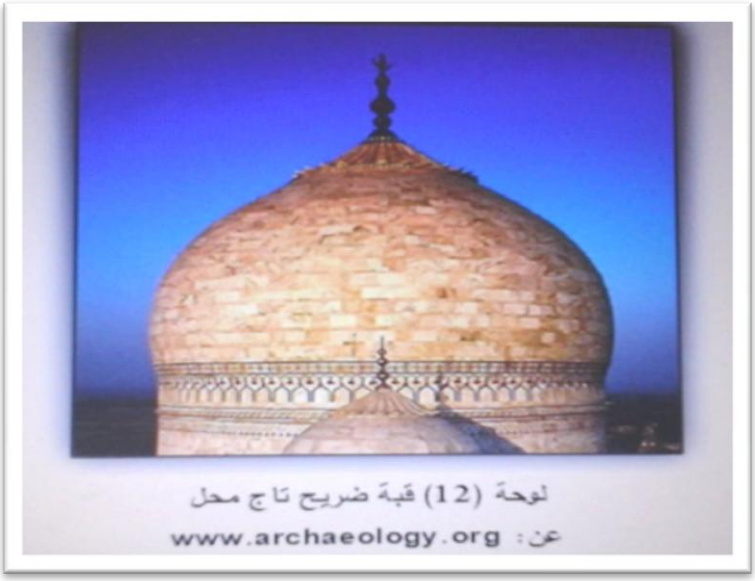

لوحة (12) قبة ضريح تاج محل
عن: www.archaeology.org

استخدامات أخرى للقباب:

تغطي القباب بعض الأماكن الأخرى مثل الاسبلة وهي مباني للشرب والتي كانت تلحق بالمساجد والأضرحة ، ثم أصبحت بعض ذلك أبنية منفصلة وتغطي الجزء المسمى بالصهريج وهو بناء تحت الأرض يغطي بقباب غير عميقة مرتكزة على أعمدة واستخدمت القباب في تغطية مداخل أسوار المدن كما في سور مدينة بغداد ومداخل أسوار القاهرة مثل باب النصر وباب زويلة و استخدمت في تغطيت الأبراج مثل برج الظفر والذي يقع في الزاوية الشرقية لباب النصر في سور القاهرة(رزق،2000، ص147) .

واستخدمت القباب في تغطية القصور مثل قصر الخليفة ابو جعفر المنصور والذي كان يغطيه قبة مرتفعة خضراء يمكن رويتها من مسافات بعيدة حتى انه عرف باسم قصر القبة الخضراء(عياد، 2008،ص66) .

كما استخدمت القباب أيضاً في المنازل الكبيرة كما في دار عبد العزيز بن مروان في مصر عندما تولى أمارة مصر وكان موفدا من قبل أخيه عبدالملك بن مروان وكانت هذه الدار تعلوها قبة مذهبة وقد كانت داراً فسيحة جداً و استخدمت أيضاً في تغطية القاعات الكبرى في المنازل وخاصة المملوكية والعثمانية وهذه القاعات توجد في الطابق العلوي وتتكون من ثلاثة أجزاء أوسطهم أرضية منخفضة وسقفه أعلى من الجزئيين الآخرين ويسمى هذا الجزء بالدرقاعة•(رزق،65،2000) وهو مسقوف بقبة من الخشب محلاه بالقمريات ومثال ذلك بيت السحيمى وبيت جمال الذهبي بالقاهرة (عياد،2008،ص76) .

وتغطى الحمامات في القصور او الحمامات المنفصلة بالقباب فقد وجدت تغطى الجزء الأوسط من الحمام وهو الجزء الساخن او "الجوأني" وتفتح فيها فتحات للتهوية والإنارة كما في حمام الصرخ وقصير عمرة ، وقد تغطي القباب ما يسمى "بالمناظر" والمناظر هي أماكن شبيهة بالاستراحات وكانت في العصر الفاطمي يجلس فيها الخلفاء للراحة او لاستعراض الجيوش مثل منظرة اللؤلؤة ومنظرة الأزهر، وفي الشرق الإسلامي ووسط أسيا في بخاري على الأخص يكون من التصميم الأساسي للمحلات والأسواق ان تغطى بالقباب وغالبا ما تكون هذه القباب عالية وقد تحد المحلات بحائط تفصل بينها(عكاشه،،ص112،ص1981).

وختاماً يمكننا القول بأن القبة أصبحت من الملامح التي تتميز بها أغلب المباني الدينية سواء عند المسلمين أو عند غيرهم ، حيث أهتم المعماري المسلم بزخرفة القباب من الداخل

والخارج بأروع الزخارف من فسيفساء و منحوتات من الجص والحجر ،كما امتازت بعض القباب بوجود زخارف مفرغة او مخرمة أعطت جمالاً رائعاً يدل علي مقدرة الفنان المسلم في زخرفة القباب بشتى الطرق والوسائل التي أتيحت له بحيث يندر أن يشاد مبنى ديني من غير أن تكون له قبة واحدة أو أكثر سواء في منتصف سقفه أو في بعض جوانبه .

لقد استخدمت القباب في العمارة الإسلامية في تغطية العديد من المنشآت منها الدينية المتمثلة في المساجد والمدارس والزوايا بالإضافة إلى المدافن كما غطت القباب المباني المدنية منها الأسواق والحمامات وغيرها ، وتستخدم في بعض الأحيان في العمارة الدفاعية كالبوابات الكبيرة في الأسوار التي تحمي المدن .

• الدرقاعة او الدركاه : مصطلح معماري عربي فارسي ويعني الصحن او الفناء الذي يتوسط الابنية الدينية غالباً

قائمة المراجع

1. عاصم محمد رزق. معجم ومصطلحات العمارة والفنون الاسلامية .– القاهرة :مكتبة مدبولي ،2000.
2. أحمد بن محمد المقري. المصباح المنير .–ج 2 .– بيروت: دار صادر ،د.ت .
3. الخليل بن احمد البصري . العين .– ج 1 .– لبنان:دار المنار،د.ت.
4. محمد الدين محمد الفيروزابادي . القاموس المحيط .– ج 1 .– د:م :المطبعة الحسينية ،1913.
5. محمد بن عبد الرزاق الزبيدي. تاج العروس من جواهر القاموس .– ج 1 .– د:م : المكتبة الشاملة ، د.ت.
6. فريد شافعي . العمارة العربية الاسلامية في عصر الولاة.– القاهرة: مكتبة الاسرة ، 2002 .
7. عاصم محمد رزق. معجم ومصطلحات العمارة والفنون الاسلامية .– القاهرة: مكتبة مدبولي ،2000.
8. عطاء الحديثى ، هناء عبدالخالق. القباب المخروطية في العراق .– بغداد:مديرية الاثار 1974
9. صالح لمعى مصطفى. القباب فى العمارة الاسلامية .– بيروت : دار النهضة العربية، ،د.ت
10. طه الوالي .المساجد في الاسلام .– بيروت :دار العلم الهلابين،1988 .
11. سهير عياد . القباب كوحدة معمارية اسلامية ،جامعة حلوان ،2008. (رسالة ماجستير غير منشورة)
12. قتيبة الشهابي . الزخارف العمارة الاسلامية في دمشق ._ دمشق:وزارة الثقاف، ة1996.
13. سهير محمد عياد . القباب كوحدة معمارية اسلامية ،جامعة حلوان ،2008 (رسالة ماجستير غير منشورة)
14. محمد عبد المنعم ذو الفقار. القباب بين السحر والجمال والاسطورة دراسة للقباب واسباب انتشارها من كتاب دراسات وبحوث في الاثار والحضارة الاسلامية .– الاسكندرية:دار الوفاء ، 2005 .
15. عزت زكي قادوس. تاريخ عام الفنون .– الاسكندرية : مطبعة الحضري ، 2001 .
16. توفيق احمد عبد الجواد . تاريخ العمارة والفنون الاسلامية .–بالقاهرة : د.ت ،1970.
17. منير البعلبكي . موسوعة المورد .– مج 3.– بيروت:دار العلم للملايين ، 1986.
18. ابي الحسن بن عبدالله السمهودي . وفاء الوفاء باخبار دار المصطفي .–ج1 .– د:م : المطبعة الاميرية ، 1977 .
19. الحافظ ابو الفداء عماد الدين ابن كثير.تفسير القران العظيم .–المنصورة: مكتبة الايمان ، ،2006 .
20. محمد بن إسماعيل البخاري . صحيح البخاري.– د:م : دار طوق النجاة ، 2001.
21. ثروت عكاشة . القيم الجمالية في العمارة الاسلامية .–القاهرة:منشورات وزارة الثقافة، 1981.
22. كمال الدين سامح . القبة في العمارة الإسلامية.– القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب ،2000.
23. محمد حمزة الحداد . قباب العمارة المصرية الاسلامية.– القاهرة:مكتبة الثقافة الدينية ، د:ت.